نوافذ

أورتوين رين

التوهان في عصر ما بعد الحقيقة

الأسباب والحلول*

Orientierungslos im postfaktischen Zeitalter: Ursachen und Losungen

ترجمة: أمين اليافعي

نعيش اليوم في زمن يتسم بقدرٍ كبيرٍ من عدم اليقين: فما كان يُعْتَبَر صحيحاً بالأمس، أصبح اليوم مما عفا عليه الزمن. فثمة حقائق جديدة مزعومة يُقدِّمها بعضٌ من أفراد المجتمع على أنها غير قابلة للنقاش أو الدحض، بينما تُرفَض الآراء المخالفة باعتبارها ما بعد الحقيقة الموضوعية. ويبدو أن التوافق في الآراء في ظل هذا السياق لم يَعُد ممكناً، على الرغم من كونه شرطاً أساسياً لإحلال السلام الاجتماعي، وإيجاد حلول للقضايا الكُبرى في عصرنا. لذلك، فقد آن الأوان للعودة إلى العقلانية والبراغماتية.

إن وصف "ما بعد الحقيقة" (postfaktisch)[1]، وخاصة البادئة "ما بعد-" (-post)، أصبحت علامةً تميز مجتمعنا المعاصر. فنحن نتحدث باستمرار عن مجتمع ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية، ونتحدث عن "ما بعد الديمقراطية"، "ما بعد الحقيقة الموضوعية"، "ما بعد الثقة"، و "ما بعد التخصص". ولم تعد هذه البادئة غائبة عن الاستخدام اللغوي المعاصر. والفكرة الكامنة وراءها هي أن شيئًا ما قد تغيرّ في مجتمعنا: نحن متأكدون إلى حد بعيد أن القديم قد ولىّ، لكننا لا نعرف بعد كيف سيبدو الجديد. وتُشير البادئة "ما بعد-" إلى أننا لم نتمكن بعد من توصيف التطورات الحديثة، ونُدْرِك في الوقت نفسه أن ما كان مألوفًا لدينا لم يعد موجودًا بالشكل التقليدي. هذه البادئة "ما بعد-" تُعبر أيضًا عن حالة بارزة من عدم اليقين في زمن معقد يَصْعُبُ الإحاطة به.

أورتوين رين

الإرادة، الرغبة، والحقيقة:

مصطلح "ما بعد الحقيقة" لا يعني بالضرورة أن الناس اليوم صاروا يكذبون أكثر من ذي قبل، أو أنهم يدّعون في غالب الأحيان أموراً لا يعرفون عنها في الحقيقة سوى النزر اليسير، فهذا الأمر قد كان موجوداً على الدوام. إنما مصطلح "ما بعد الحقيقة" يعني أن هناك اتجاهاً واضحاً في الوقت الراهن لأن يُنظر إلى ما يرغب المرء في تصديقه وكأنه حقيقة فعلية، حتى وإن كانت جميع الأدلة تناقض ذلك. فقد باتت لدى الأفراد قناعة ثابتة أن ما يريدونه فقط هو ما يجب أن يكون صحيحاً.

نجد هذه المغالطة أو الجدل المُتحايل (Trugschluss)[2] عادةً في عالم السياسة ومنصات تشكيل الرأي العام، ولدى جماعات المصالح (اللوبيات) وكذلك لدى الجماعات الإيديولوجية في معظم دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD). وهذه الظاهرة تُشكّل تحديًا كبيرًا للعلم والسياسة معًا. فالمؤسسة المسؤولة عن الحقائق، وهي العلم، تبدو في كثير من الأحيان عاجزة. أما السياسة، فلا تستطيع التوضيح للناس، وبشكلٍ معقول، أن كل عمل سياسي مشتبك بأهداف متضاربة، تحول دون التوصل إلى حل ينشده الجميع. لذلك يُنْظر إلى السياسيين على أنهم غير أكفاء وغير متبصرين.

بالإضافة إلى ذلك، لم يَعُد يسيراً على العلم تحديد ما هو "حقيقي/صحيح" وما هو ليس كذلك. بل أصبح يسعى من خلال استخدام النماذج والمحاكاة والهياكل اللغوية والمنطقية إلى تقديم تفسير سببي أو وظيفي بقدر المُستطاع لمسارات الأحداث أو الظواهر الطبيعية، دون أن يكون قادراً على شرح حزمة التأثيرات بشكل كامل ويقيني. وهذا يعني أن النتائج العلمية دائمًا ما تكون مشوبة بعدم اليقين، ونحن نعلم أيضًا أن الظواهر المدروسة يُمكن النظر إليها من زوايا مختلفة وبالتالي تفسيرها بطرق متعددة.

هذا التقييد في الطروحات العلمية يؤدي في كثير من الأحيان إلى افتراض خاطئ بأن العلم قد تخلّ عن طموحه في تقديم الأدلة الكافية لإثبات الحقائق ونقلها، أو فقد قدرته على ذلك. لكن العكس هو الصحيح: فالعلم بعيد كل البُعد عن الادعاء بأن الحقيقة عشوائية/اعتباطية. من المهم لفهم العلم أن يُوصّف الباحثون بدقة علاقة السبب والنتيجة – المبدأ الذي تقوم عليه التفسيرات العلمية؛ أي بكونها من حيث المبدأ ممكنة، ولكن يكاد من شبه المستحيل تحقيقها في الواقع، وتحديد ما هو ممكن منها لكن غير مُرجح، وما هو مرجح ويمكن اعتباره شبه مؤكد. وهكذا أصبح لدينا الآن نوع آخر من "مصفوفات الحقيقة" تختلف عن المنطق ثنائي البُعد (صواب/خطأ) الذي كنا نقيّم به الموضوعات في واقعنا.

من المؤكد أن تكون لهذه التداعيات تأثيرًا كبيرًا على الجدل في عصر ما بعد الحقيقة، لأنه يفترض ببساطة أننا في النهاية بإمكاننا ترسيخ أي ادعاءات بالحقيقة، مهما كان نوعه، من خلال حجج مناسبة. وهُنا لا توجد جهة (محايدة) يمكنها أن تُقرر أي من هذه الادعاءات صحيح وأيها ليس كذلك. هذه النظرة النسبية للحقيقة، من وجهة نظري، لا تستند إلى أي فهم علمي جاد، بل تُعد إعلانًا عن إفلاس العلم. على الرغم من عدم اليقين كله والغموض الذي يكتنف المعرفة، تظل "المعرفة الاستتباعية" (Folgewissen) أكثر موثوقية من الحدس البحت أو من المعرفة التجريبية الذاتية.

"مصطلح "ما بعد الحقيقة" لا يعني بالضرورة أن الناس اليوم صاروا يكذبون أكثر من ذي قبل، أو أنهم يدّعون في غالب الأحيان أموراً لا يعرفون عنها في الحقيقة سوى النزر اليسير. فهذا الأمر قد كان موجوداً على الدوام. إنما مصطلح "ما بعد الحقيقة" يعني أن هناك اتجاهاً واضحاً في الوقت الراهن لأن يُنْظَر إلى ما يرغب المرء في تصديقه وكأنه حقيقة فعلية، حتى وإن كانت جميع الأدلة تناقض ذلك. فقد باتت لدى الأفراد قناعة ثابتة أن ما يريدونه فقط هو ما يجب أن يكون صحيحاً."

غرف الصدى كمأوى لتأكيد الذات:

ومع ذلك، أصبح لصوت العلم أهمية أقل في نظر الكثير من الناس وفي الخطاب العام كمصدر يُقدَّم التوجيه. والسبب في ذلك يرجع في المقام الأول إلى الهياكل الجديدة في عملية التواصل. وليس المقصود هنا أننا لم نعد نتواصل في الواقع بما يكفي - بل على العكس، نحن نتواصل اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى. إنما أصبح التواصل ذاته، وبشكل متزايدٍ، نوعًا من طقوس التأكيد على الذات.

نحن نتحدث اليوم، على سبيل المثال، عن "فقاعات الإنترنت" (Internetblasen) أو "غرف الصدى" (Echoraumen)[3]، حيث لايردد المرء فيها سوى ما يعتقده بالفعل صواباً. من الناحية التجريبية، ليست هذه الظاهرة مهيمنة، كما يتم تصويره في وسائل الإعلام، إلا أننا نرى أن عدد "غرف الصدى" التي ينزح الناس إليها، حيث يسمع الفرد فقط ما يعتقد أنه صائبٌ أو ملائمٌ، آخذةٌ في الازدياد. وهذا يعني أن هذه البيئات لا تتيح أي إمكانية للتعلم، إذ لا يمكن للمرء أن يتعلم إلا عندما يسمع شيئًا جديدًا لم يكن يعرفه من قبل، ويستوعبه إلى حد يسمح له بإثراء معارفه.

عالم "ما بعد الاتصال" له أوجه كثيرة ومتعددة، وغرف الصدى واحدة منها. ونلاحظ هذه النزعة نحو الاستقطاب في الغالب في المجالات التي يتم التطرق فيها إلى الاستشارات العلمية للسياسات، مثل: الإرهاب، اللاجئين، الهجرة، حماية المناخ، أو حتى الجريمة. في هذه المواضيع، توجد العديد من "غرف الصدى" التي يعبرّ فيها الناس عن مشاعرهم بصورةٍ متطرفةٍ، ويؤكدون مراراً وتكراراً عن تفضيلهم نوعاً معيناً من السياسات. ويقوم هذا النوع من السياسات، عادةً، على فكرة "القانون والنظام" الصارمة، حيث يتم إظهار أن "نقاء الشعب" بات مهدداً. وعندما يضلُ أحدهم طريقه إلى "غرفة صدى" (افتراضية) كهذه، وكان له رأي مختلف، فسيتعرض فوراً لـ"عاصفة من الانتقادات اللاذعة".

وإذا كان متلقو الخدمات الاستشارية يبحثون فقط عما أطلقوه هم أنفسهم (من آراء) في "غرفة صدى" معينة، فلن يكون هناك تواصلٌ حقيقيٌّ بعد ذلك، بل لن يكون هناك سوى تواصل ذاتي يتمحور حول الأنا - بغض النظر عن مستوى الخبرة أو الكفاءة المتوافرة حول الموضوع.

الخروج من فخ ما بعد الحقيقة:

كيف يمكننا التعامل مع هذه الظواهر؟ الإجابة الأولى بسيطة للغاية، لكنها أساسية: يجب تسليط الضوء بشكل أوضح على هذه السياقات التي ذُكرت آنفاً. أعتقد أنه في الخطاب العام - على وجه التحديد - لا يتعلق الأمر كثيراً بأن يقول العلماء ما هو صحيح، بل بأن يشرحوا لماذا تبدو الأمور غير الصحيحة جذابة لهذه الدرجة. وإذا تمكنت العلوم الاجتماعية بشكلٍ خاصٍ من توعية الجميع بالأساليب التي يستخدمها الشعبويون، وبالحِيل البلاغية والمزاعم التي يطلقها هذا النوع الجديد من "صائدي الفئران" (Rattenfangern)[4] عبر مزاميرهم حتى يلتف الناس حولهم، فسيكون ذلك أكثر فاعلية من مجرد التركيز على الأرقام الإحصائية وأدلة الإثباتات.

"نحن نتحدث اليوم، على سبيل المثال، عن "فقاعات الإنترنت" أو "غرف الصدى"، حيث لايردد المرء فيها سوى ما يعتقده بالفعل صواباً. من الناحية التجريبية، ليست هذه الظاهرة مهيمنة، كما يتم تصويره في وسائل الإعلام، إلا أننا نرى أن عدد "غرف الصدى" التي ينزح الناس إليها، حيث يسمع الفرد فقط ما يعتقد أنه صائبٌ أو ملائمٌ، آخذةٌ في الازدياد. وهذا يعني أن هذه البيئات لا تتيح أي إمكانية للتعلّم، إذ لا يمكن للمرء أن يتعلم إلا عندما يسمع شيئًا جديدًا لم يكن يعرفه من قبل، ويستوعبه إلى حد يسمح له بإثراء معارفه"

وهذا يقودني إلى النقطة الثانية. ففي كثير من بيئات المخاطر المعقدة التي لم يَعُد بإمكاننا تطبيق آلية التعلم التقليدية فيها المتمثلة في المحاولة والخطأ، لأن الخطأ سيكون مُكلِفاً للغاية (مثلاً في حالة التغيرّ المناخي)، فإننا نعتمد وبشكلٍ متزايدٍ على توقع عواقب أفعالنا. التوقع هنا يعني بناء محاكاة أفضل، خاصة في الفضاء الافتراضي. ومن خلال هذه المحاكاة، يمكننا توضيح التهديدات الحقيقية للناس بشكلٍ أفضلٍ بكثيرٍ مما تفعله الأرقام البحتة والبيانات الإحصائية، وبالتالي كيف يحمي كل فرد نفسه منها، وما الذي يمكن أن نتوقعه في حال اتخذنا إجراءات معينة. ومن المهم بشكل خاص -إظهار تبعات التدابير السياسية بشكلٍ واضح من أجل تجنب المخاطر التي لا رجعة فيها، ولتخطيط سِكك متينة لتحسين ظروف حياتنا حتى في ظل عدم اليقين والالتباسات.

النقطة الثالثة تتعلق بزيادة مشاركة المواطنات والمواطنين في صنع السياسات. فلا يمكن الاكتفاء بجلب الأدلة العلمية إلى الخطاب العام. وأحب أن أستخدم هنا الشعار: "من الحديث العفوي على طاولة المقهى إلى الحوار الجاد على الطاولة المستديرة". من يجلس على طاولة المقهى، لا يتحمل مسؤولية، ويمكنه إصدار أحكام سريعة بناءً على ربطٍ للأفكار بصورةٍ أقرب للبداهة أو العفوية، حتى وإن كانت هذه الأحكام غير مُدَعَّمَة. أما على الطاولة المستديرة فيكون الأمر أكثر صعوبة: من ناحية، لأن المائدة المستديرة ستضم أيضًا أولئك الأشخاص الذين يسهل إصدار أحكام سلبية عليهم. ومن ناحيةٍ أخرى، لأنه يدرك حجم المسؤولية المرتبطة بذلك، وبالتالي سيقوم بالبحث والتحقق بعمق مما إذا كان ما يعتقده صحيحًا فعلاً. ويتعلق الأمر هنا قبل كل شيء بالاعتراف بالتعارضات المؤلمة أحيانًا في الأهداف، وبضرورة إيجاد حلول توافقية مع جميع الأطراف المعنية. وهذا هو بالضبط هدف كل وساطة أو شكل من أشكال تسوية النزاعات عن طريق الحوار.

هوامش للمترجم:

* أورتوين رين (Ortwin Renn): أستاذ علم اجتماع، محاضر في عدد من الجامعات الألمانية، المدير العلمي في معهد الدراسات المتقدمة للاستدامة، تركزت أبحاثه حول مواضيع الأزمات، المخاطر والاستدامة.

نُشر المقال في العدد الأول (1 / 2025) من مجلة "التَوَسُّط" (Mediation) المختصة في حل النزاعات واتخاذ القرار.

(1) postfaktisch أو بالإنجليزي "post-truth" ويمكن ترجمته إلى عصر ما بعد الموضوعية، أي العصر غير المرتبط بالحقائق المتوافق عليها.

(2) Trugschluss: تعني مغالطة منطقية أو استنتاج يحاول خداعنا والتحايل علينا إذ يبدو صحيحًا أو منطقيًا للوهلة الأولى، لكن عند الفحص الدقيق تظهر عيوبه المنطقية، كالحكم التعميمي على مجموعة من البشر بأنهم سيئون بناء على أن كل من قابلتهم من هذه المجموعة سيئون بالفعل، وهو يختلف عن الحكم العنصري الواضح، لأنه مبني على التجارب والمواقف التي مرّ بها المرء وليس على حكم عام مُطلق سواء كانت هنالك تجارب أم لم تكن. المثال الثاني قولك لأحدهم: "حجتك غير صحيحة لأنك لا تفهم شيئاً".

(3) Internetblasen و Echoraumen كلمة "فقاعات الإنترنت" أو "غرف الصدى" تشير إلى ظاهرة مرتبطة باستخدام الإنترنت، حيث يتعرض المستخدمون في الغالب فقط للمحتوى الذي يؤيد آراءهم ومعتقداتهم وتفضيلاتهم الشخصية. وتعتمد الكثير من المنصات الإلكترونية مثل وسائل التواصل الاجتماعي ومحركات البحث على خوارزميات تقوم بتحليل سلوك المستخدم (مثل ما يبحث عنه، وما يعجبه، وما يشاركه)، ومن ثم تقوم بعرض محتوى مشابه لما سبق أن تفاعل معه. هذا يؤدي إلى إنشاء "فقاعة معلوماتية" تحيط بالمستخدم.

(4) Rattenfangern: يشير الكاتب هُنا إلى الأسطورة الألمانية التي تتحدث عن الرجل الغريب الذي ذهب إلى مدينة هاملن وهو يرتدي معطفًا من القماش متعدد الألوان ويتظاهر بأنه صائد الفئران. كانت المدينة تُعاني من وباء الطاعون ولم تستطع السيطرة على الفئران. وكان الرجل الغريب يمتلك مزماراً، وعندما أخرجه من معطفه، وأطلق لحناً، زحفت الجرذان والفئران من جميع المنازل وتجمعت حوله.